بائع الوهم

◆ امينة برمكو

سوريا

شلال الرّائحة ينساب زغباً ثلجيّاً، ينفسح بحراً هائماً، تتشابك الأصابع الوهميّة على شاطئ الملوحة، ترتعد الفصول في جوف دراقة صيفية، يسكرني بلسم المذاق. أعيد صياغة الشّخصيّات، لم أعد قادراً السّيطرة على أهوائي الّتي تذرف حبراً بريّاً، كلّ شخوصي تتنكّرني، كأنّني لست صانعها، ويلي كيف صنعتها في لحظة طائشة؟ ربّما لو أمعنت الغوص في أعماقها، لخرجت أكثر اتّزانا، احترمت تعبي وهذياني اليومي في سبيل الارتقاء بها إلى لائحة الإبداع، لكنّني كائن أدمن الانصهار داخل كهف الذّات، أبحث عن هوية الأشياء الضّائعة بدل الأشياء الموجودة، النّتيجة نصّ يشبهني:كان الصّباح غافياً، يلتحف ابتسامة سمراء،

سقطت لتوّها من شمس يتيمة أحزنها النّوم المفاجئ للقمر، الشّارع ينتظرها بيقظة طفوليّة، تمارس لعبة الانتظار المفروش بغباء الأمكنة هناك، نسائم باردة تغازل الأشياء الصّامتة، تمتطي حذاءها الّذي به تنتعل كرامة حزنها، تترك العنان لصهيل خطواتها الفاردة أحزمة جنونها المربوطة بقبل تائهة، تراه من بعيد إنّه عداد هذا الحزن، تسرق ظلّه لأنّه باع جسده سابقاً للرّيح، تراقص الهواء المحيط به تستنطق نسمات شعر لا يقراه أحد، قبل أن تلقي التّحية عليه كعادتها في سرقة سلامه، يتأرجح وشاح الضوء في المساحة الرّخوة الّتي تفصلهما، يعلن تشمّسه، عندما تسترخي أصابعها في كفّه تجنّ تجاعيد الكفّ، تنسى انحناءات الهرب وقراءات الحظّ، يستيقظ الرّبيع فرحاً في راحتي المشهد.

أقرب مجهر التّدقيق المعنويّ، لتظهر البطلة المتربّعة فوق عرش التّمرّد وهي تصيح: القدر وجع، وجع الاحتماء من الذّات، يدعونا للجلوس مع سادة هذا العصر، هؤلاء السّادة الّذين يعلموننا الخنوع والتّحفظ والخوف من الذّات العليا، والانحدار إلى أودية الهذيان، محاربة الحياة بمطرقة الجمود. اقبض على جموحي لو كنت جرحاً يلازمني يا أستاذي المؤلف. كنت شخصيتك المدللة، تحميني من السقوط على شاطئ الدهشة، لم تكن تنتظر أن تقرأني في عيون الجرأة؟.ترى هل كان أوديب محقّاً عندما قال:" بأنّنا لا نرى بعيوننا، بل بالعيون نتحرّك في العالم". عين مضيئة تغمرني بفضائل ساطعة، أرتعش كزغب شلال، وأنا أواجه القلق، هل كنت محقّاً عندما قرّرت صنعي كفتاة متّزنة، لم تكتشف هيبة قلمك، وأنت تروي نكتة مباغتة في اجتماع سرّيّ لسادة العصرهاها............تبّاً لكلّ مؤلفاتك العقيمة، الّتي تروي حبرك بقضايا صعبة.. 1+1=1،1+1=1+1 هكذا تناقش مع قرائك حول مائدة محاطة بطقوس معقّدة، تدعو للرّهبة، والنّتيجة دائماً واحد. كيف تكون المعضلة معقولة في نتيجة مربكة، من يستطيع أن يتبّنى النّتيجة العادلة، ويقنعني بأنّني ثمرتك العفنة، لا تقنعني بالتّراجع، تحرّرت منك، الآن أعيش تحت أهداب الشّمس، لن أخافك أنت لم تورثني سوى المواعظ حنطتني في قالب البنت العاقلة.. البنت الّتي لا تضحك.. لا تفكّر..لا تركض في الشّوارع.لا. .. لا..نسيت أنّ الّذي لا يفكّر هو ميت، غير موجود، كرّست إمكانيّاتك لتجعلني ميتة، لا تغضب لأنّني تمرّدت عليك، أنا الآن أفكّر، أغرف الحياة، أحمل فانوس البحث بيدي، كالفيلسوف الإغريقيّ ديوجين، لكنّ لا في صفوف العامّة، ولا في الطّبيعة ولا في التّاريخ، بل في داخـــــــلــــــك.

اشطب بممحاة النّسيان صورتها الّتي تشتعل بظلال أصابعي، أتقيّأها نهراً من النّدم، أهرب إلى البطل أتأمّل الخير به، لأنّه كان يسقي حبري بندى الوضوح، أخاف أن يصدمني بعد أن ألقيته حجراً في بحيرتها: ينتظر كأيّ عاشق ثمل بلقاءه، ينتظر مفردة جنونه وجنونها.

أيّة عاصفة معتوهة، قذفتها نحوه، ليته عرفها قبل ولادته، يخاف البزوغ فجراً في عتمتها، يبني لها حائط الجموح، لا ينتظر جرحاً يشي بها، ما زال غضّاً في أروقة العمر، وهي ترفرف بأجنحة هزيلة، مبلّلة بحبر صانعها، ضائعة في جنازة الأشياء الوهميّة، يتلصّصان من المكاشفات، يخاف من الكلام أن يبعدها، يكتفي بحراسة غمازتيها..تقول له: أم أن أكون مشمشاً سلس المذاق فوق مائدته المشبوهة، أو أجفّ كأيّة شخصيّة ورقيّة، لا أريد أن يشربني رجل عاقر

المشاعر يدّعي نصّاً ناصعاً، فيما بعد يخونني بنصّ جديد، يستبدلني بشخصيّة أخرى، استهوت قلمه.

لم يخبرها بعد كم يودّها حمامة تضيئه، يقول لها: أرجوك لا تذرفي موتاً، أنا معك..تقول: انسج لي وشاح الفرح.. لماذا تصادر قميصي المبلّل بشهقة فرح؟ لماذا تنسى ظلّ أصابعك على تنورتي؟. تراودها صوته، رحيق الهمس في أغصانه..اخضراره في آنية الرّعشة.. إنّه يشرب ملوحة الموقف، يصاب بلفحة اللّحظة، تستهويه انحناءة الظلّ المفروش على حافة النّافذة، يعمد قبله، مساميراً في جدار الألق، واحدة على ناصية تعبه السّابق، وأخرى لأصابعها المتهدّلة.. والتّالية لشواهد الموت التّي ارتادها، ثمّ غيّر تارخ موته، للحظات مدّ كلٌ منهما لسان لغته للآخر..ترنّحت المفردة فوق الشّفاه، تلبدت أفكار السّطورلإرتعاشات القدر.. ينسيان غسل وجه الصّبح بالكلام، يطوقان الانطفاء فوق مركبة طائشة، تطفو مع جنون الرّائحة، رائحة المطر المنساب في شلال الرّؤية المطرّزة ببراعم الاغتلام، قبل أن يفترقا، ترنّحت الكلمات كقبلة مقدّسة في دهشة الفراغ، يحمل مظلّة الأرق، تائهاً في فصول الوجع، خائفاً الاختباء طويلا في خزانة الرّضى، تحمل في جيبها مفاتيح الجنّة، يأتي صوته المنقح بقواعد صارمة، يحذرها الاسترخاء في غابة مجاورة، تحمل لها ثمار العاصفة، تختزل نفسها في حجرة الصّمت، فيما بعد وهي تحاذي شارع الافتراق، تحاول أن تدسّ مخاوفه في قارورة الحذر، تغمض أرقها، تحلم بفجر يرتديه، حقائب محمّلة بدفاتر هائمة.

لا فائدة من القراءة وإعادة الصّياغة لرجل أحمق، رضع التّمرّد من الحبر الّذي اشتريته سهوا من حانة الوهم.. وأنا الّذي صممت شراء حلم يضاهي بياض الورق، لكنّه الوهم، سأبيع الوهم لقرائي الّذين ينتظرون ربيعاً متوّجاً برنين الأبديّة، لا أحد في زماننا يملك مفاتيح أحلامه، الأحلام مصمّمة مسبقاً للرّيح.. ريح الجوع الّذي يصرخ في أضلاعنا.. الجوع الّذي يضاهي قامة الوقت، منذ ولادتي، وأنا اكتب عمرا ضائعاً، لأبطال اغتنموا شيخوختي، تمرّدوا على نبراتي الّتي أرضعتهم منها طوال سنواتي المتعبة..هل أحرقهم.. أقتلهم؟ وأنا الّذي سهرت اللّيالي أجفّف حزنهم، أسقيهم ماء البقاء، لا أستطيع قتلهم، لالا مستحيل أن أحرقها.. أحرقه : يزوران معاً حانة

مترفة.. يرتشفان حنين الحوار، تراودها لعنة الأيام الخاوية.. يكتم غصة من أشواك الألم، دون أن يخبرها لعبة الاختباء وراء عباءة خريفية، تزيد صحوة الارتقاء في قلبه الصغير، ترتبك المائدة.. الأصابع تند خدراً معنوياً. لماذا لا تضحك؟ ينظر إليها نظرة حادّة، تلامس مروج البراءة في أعماقها.. تتساقط أوراق الرّومانسيّة من أغصانه.. لأنّني أكثر من الضّحك، أكبر من الفرحة في حضورك.. يا رجل ألم تعدني بجثّتي في غفوة كلاميّة؟؟..ها ها لك دروعي وهوامشي وألقي الصّيفيّ، وصورة طفل تمرّد على الجرح. زاويتا فمه تنثران ثلج الرّغبة، تقمع صكوك التّبريرات في صوتها، تشتعل أهدابه رقّة.. يغازلان خاصرة اللّقاء بعسل الصّدفة، صدفة الكتابة فوق جدران القلب، يبعثر وروده في حديقتها، تجنّ النّوافذ والأبواب والسّفن التّائهة في محيط هائج، ترتطم كتفيها برصيف البهجة.

تبّاً بدأت أخافهم.. أخافها.. لأنّها الأكثر صلابة، لالا لا أخافها بل أحبّها، أحبّ وقاحتها، أحبّ تشبّثها بحبري الّذي يتألّق بكتابتها، وهي تبدو كفتات معتوهة، ترتدي زيّاً صيفيّاً مبتذلاً، تقف بجانب حافلة مكتظّة بركاب مقنّعين تلقي التّحية بروح مغامرة، يخفون رؤوسهم في مقاعدهم، لا أحد يسترق النّظر إليها، تلفظ كلمات بذيئة، تلوّح بيدها، تتوّج عدم اكتراثهم بسيجارة من النّوع الرّخيص، تخلع حذاءها الرّياضيّ، ترقص كراقصة باليه فاشلة، يبصق أحد الرّكاب من النّافذة، تمدّ لسانها إليه، تقول بمرح طفوليّ: أنتم ميّتون، أنتم مخلوقات مبرمجة بقوانين ثابتة، تديركم مفاهيم القطيع الملوّثة بالكذب والخداع والخبث، أنتم مشاريع كرتونيّة في طريقكم إلى الإنسان، انظروا كم أبدو مضيئة، أعيش حقيقتي.. وجودي.. حرّيتي.. هل تنظّمون مظاهرة جديدة لتشويه الرّجل الّذي كشف لكم سفالة الفكر الجامد، نيتشه الّذي أراد أن يعلمكم الطيران، ليزيل كلّ الحدود الممسوخة، ويعمد الأرض من جديد، ها أيّها المقنعون ما جريمتي؟؟.

أحببتها وأنا أعرف بأنّها شخصيّة من الوهم، اخترعتها وقرّرت أن أحاكي روحي من خلالها، لا أنكر بأنّني أخفيت روحي تحت قميصها، تقمّصتها بدل أن تتقمّصني، هنا تدحرجت كرة اللّحاق بها، الآن جاءت اللّحظة الحاسمة، عليّ أن أتدبّر أمر إخفاءها من أوراقي، بقاؤها حرّة بين سطوري، ستجعلني أسير رغباتها، ربّما أجدها يوماً في أحد الأماكن الّتي ترتادها خلسة.. هل حانت لحظة ارتطامي بها؟؟ ترمقني كلبوة.. تهدّدني: لأنّني مشروع إنسان وهميّ، كم كنت مخادعاً في ابتزازي لمصلحة قرّاؤك، حملت لي سلة مليئة بفاكهة بلاستيكيّة، اقنعتني بأنّها مطعّمة بفيتامينات، ستقوّي إرادتي، تمنحني أكثير الحياة ، لكنّك يا أستاذ سبّبت لي سوء تغذية معنويّة، وهشّاشة فكريّة، وحلوى مغموسة بشاي البلادة. تخافني، تخاف أن لا تستطيع العثور عليّ عندما يخفق الحنين مسعوراً بين أضلاعك، و أنت تستعيد قراءاتي.

أعترف بأنّني فشلت في ترويض شخوصي، ها هي تمتلكني، تسجنني داخلها، تحرّضني عليّ، موسيقا الحروف تشدّني.. تحطّم القلم بين أصابعي، انظر حولي مدهوشاً. أراني وحيداً في غرفة معتمة، اصرخ بها، به، افتح الصّفحات مجدّداً، لا أرى سوى الكلمات، أخفي وجهي براحتي، وحيد، بردان..يكلّلني الفراغ بهواء السّأم، اجلب قلماً جديداً، أبدأ بصناعة نصّ جديد، وكلمات أخرى لا تشبهني.